

التفسير المختصر - سورة التوبة (٠٩) - الدرس (١٩-٠٢) : تفسير الآياتان ٢٥-٢٦ ، الإفكار
الله تعالى.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٤-٠٧-٣١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين:
أيها الأخوة الكرام:

الآية الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون من سورة التوبة وهي قوله تعالى:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ

عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى

الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ﴿

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾

يعني لما لم ينصركم، لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبكم كثرتكم فلم تغن
عنكم شيئاً وضافت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين.

ورد في الحديث الشريف:

((لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أكبر يا رسول الله ما هو الشيء الذي هو أكبر من الذنب ؟

قال عليه الصلاة والسلام: العجب !!! العجب !!!))

الإنسان إذا أعجبه نفسه، استغنه عن ربه، وكان إعجابه لنفسه حجاباً فيما بينه وبين الله عز
وجل.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾

سابقاً مئات المرات الله نصركم، لما هنا لم ينصركم، قال: ويوم حنين إذ أعجبكم كثرتكم فلم تغن
عنكم شيئاً وضافت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. سنأخذ آية مقابلها.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾

(سورة آل عمران: ١٢٣)

معنى أدلة يعني مفتقرين إلى الله، متذللين له، تشعرون بالعبودية له، تتبرئون من حولكم قوتكم.
هاتان الآيتان، والله الذي لا إله إلا هو، ما من مؤمنٍ إلا ويمتحن في اليوم الواحد عشرات
المرات بهاذين الامتحانين، المؤمن بين بدرٍ وحنين، في بدرٍ أفقر إلى الله، فتولى الله أمره،
ونصره وفي حنين، أعجبه كثرتة، فتخلى الله عنه.

طيب أيعقل أن يتخلى الله عن أصحاب رسول الله ! وهم الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله، وكان
فيهم رسول الله، إذا كان أصحاب رسول الله الذين وضعوا أرواحهم على أكفهم في الجهاد في
سبيل الله وحينما أعجبوا بكثرتهم في حنين، تخلى الله عنهم، فمن نحن، إذا أعجبنا بأنفسنا.

هذا الكلام أيها الأخوة، يعني، أنه في كل موقف تفقه، إذا قلت الله وأنا لا شيء، اللهم إني تبرئت من حولي وقوتي، والتجأت إلى حولك وقوتك، يا ذا القوة المتين، تولى الله أمرك، وإذا كان الله معك فمن عليك، أما إذا قلت أنا، خبرتي، مالي، علمي، خبرات متراكمة، تفوق في الدراسة، أنا ابن فلان، أنا حمي المالي كذا لمجرد أن تقول أنا يتخلى الله عنك، ولمجرد أن تقول الله وأنا لا شيء يتولى الله أمرك، فأنت في اليوم الواحد، بين امتحانين، إن افتقرت إلى الله تولى الله أمرك، وإن أعتزت بنفسك، تخلى الله عنك.

لذلك إذا أقدمت على عمل، طبيب سيجري عملية جراحية مدرس سيلقي درس، إذا قال: اللهم أني تبرئت من حولي وقوتي وعلمي والتجئت إلى حولك وقوتك وعلمك، يا ذا القوة المتين، تجد التوفيق العجيب، وما في واحد من أخوانا الكرام، إلا يعرف أيام توفيق عجيب، يكون في قبله في افتقار إلى الله عز وجل خائف، أيام رغم ذكائه، رغم خبرته، رغم ماله، يرتكب حماقة، ما بعدها حماقة، كيف ارتكب هذه حماقة؟ لأن الله تخلى عنه، لأن الله إذا أراد إنفاذ أمر، سلب من كل ذي لب لبه، بسحبك خبرتك وذكائك ومالك، بتلاقي أعمال كلها حمقاء، وأنت ذكي وقوي. لذلك أنت دائماً بين حالتين، حالة التولي وحالة التخلي، تولى وتخلى، إن قلت أنا تخلى، ولو كان رسول الله معك، الصحابة الكرام معهم رسول الله.

ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضافت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾

فاذاً بدر وحنين، في حياة كل مؤمن في اليوم عشرات المرات عشرات المرات، أنا بقلك استعملت خبرتي في هذه الصفقة، بنفلس منها، يا جبار بتريح منها، إذا قلت يا جبار بتريح، إذا قلت أنا خبراتي متراكمة، أنا بنقي البضائع الرائجة، ما بتنباع معك هذه البضائع. أخ حدثني ببيع أقمشة في سوق الحميدية، هل آتي لعنده زبون من حماه، أشتري، أشتري، أشتري، قصة من سنة الخمس والخمسين أشتري شيء بخمسين ألف، يعني حق بناية، في عند صفة قماش أجمل صفة، قال له بدي هي، قال له والله هي منباة، قال له إذا ما بتعطيني إياها ما بدي كل الصفقة، أشاور مع صانعه قال له سيدي بيعوا إياها، مادام وقف البيعة على هي دبرها، قل له أخي راحت، بحكي لي التاجر، قال لي: والله أربعين سنة، ما انباعت الصفقة معي بعدين قسمها مربعات، لف فيها الأقمشة، أن هو شافه هي أحل شيء بدو يبيع ويريح منها، وإذا ما أستلمها بلغي الصفقة كلها، قل لي أربعين سنة ما كان تنباة معنا، من جرد إلى جرد، صار في تحدي لأنه، قال هي أربح فيها، الله تخلى عنه، قل لي والله ما صرفنها إلا قطع مربعة، صرنا فيها الأقمشة، هي أجمل صفة.

بس تقول أنا، بس تعند برأيك، بس تعند بعلمك، بخبرتك بخبرتك التجارية، بذكائك، بمالك، بأسرتك، بصحتك، يبجي التخلي بس تقول يا رب، أنا لا شيء، أنا الفقير وأنت الغني، أنا الجاهل

وأنت العالم، أنا الضعيف وأنت القوي، بتلاقي الله عز وجل أعطاك قوى لا محدودة، عطاك دعم، عطاك توفيق، عطاك نصر عطاك سداد في الرأي، طلاقه في اللسان، موقف حكيم، كل حكمتك وكل ذكائك، وكل التوفيق، بسبب افتقارك إلى الله.

أخوانا الكرام:

هل الآيتين خلهن ببالكم.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾

ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت. قبل أن تعقد صفقة، قبل أن تقدم مرافعة أمام القاضي، قبل أن تلقي درس، قبل أن تمسك بمريض. في طبيب نسائي، تألق اسمه إلى درجة مذهلة، صار الطبيب الأول، شعر أنه هو أول طبيب بالبلد، يجري عملية ولادة، صار في محاولة لقطع أربطة الجنين، قطع الرحم وقطع الأمعاء، ولولا أن أخذ المريضة للإسعاف الفوري، لسحبت منه الشهادة.

بتلاقي بيرتكب المعتد بنفسه، حماقة ما بعدها حماقة، إن كان في التجارة، إن كان في الصناعة، إن كان في الزراعة، إن كان في العمل الحر، أم إذا كان في توكل، وفي إنابة، وفي افتقار، وفي عبودية، وفي تذلل.

المؤمن أيها الأخوة، عزيز النفس كثير، بس مع الله متذلل أهل الدنيا، مستكبر على الله عز وجل، وأمام القوي مثل القط بتلاقي مثل الحيوان المتذلل أمام القوي، أما أمام ربه، مستعلي، استكبرت عليهم أنفسهم.

فنحن درسنا البليغ، عنا آيتين، بدر وحنين، بدر افتقروا ! الله نصرهم، حنين ماذا قالوا ؟ الصحابة أظهر من الملائكة، باعوا أنفسهم ما قالوا: إلا لن نغلب اليوم من قلة، ولعلمهم قالوا هذا بأنفسهم فاستحقوا أن يتخل الله عنهم، وهم صحابة رسول الله، نحننا نحننا معنا نحننا، فإذا الواحد منا قال أنا.

لذلك قالوا أربع كلمات مهلكات: أنا !! ونحن !! ولي !! وعندي !! قال الشيطان.

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾

فأهلكه الله، ونحن، قوم بلقيس.

﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾

(سورة النمل: ٣٣)

فأهلكهم الله، ولي قالها فرعون.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾

(سورة الزخرف: ٥١)

فدمره الله، وعندي قالها قارون.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾

(سورة القصص: ٧٨)

فأربع كلمات مهلكات، أنا ونحن، ولي، وعندى.

الافتقار في معه توفيق، في معه دعم، في معه تسديد، في معه ترشيد، في معه تنوير، في معه نصر، في معه حفظ، في معه تأيد، والاعتداد في معه تخلي، لذلك، من أتكل على نفسه أوكل الله إياها، والإنسان ضعيف، بالله قوي، بنفسه ضعيف، فالإنسان إخوان الكرام قبل كل عمل، أفنقر إلى الله، بس بإخلاص، بحضور قلب يا ربي ليس لي إلا أنت، أنا ضعيف فقوي في رضاك ضعفي، أنا ذليل فأعزني، أنا جاهل فعلمني، أنا مفقر فأغنني، هكذا المؤمن، ما في أحل من التذلل إلى الله، رفعة، وما في أحل من أن تكون عزيزاً على الناس، لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير، من جلس إلى غني فتضعع له ذهب ثلثي دينه، من جلس إلى غني أتمسكن له يا سيدي ما في شغل ما في كذا فتضعع له تمسكن له، ذهب ثلثي دينه، ملك الملوك إذا وهب، قال الشاعر: لا تسألن عن السبب، لا، أنا بقول موهيك.

ملك الملوك إذا وهب قم فسئلن عن السبب

الله يعطي من يشاء فقفا على حد الأدب

يلي عطاءه بيعطيك، أطلب من الله، الحسن البصري قيل له بما نلت هذا المقام، قال باستغنائى عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي

لا تسألن بنى آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تغلق

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وأرض عنا، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم.

والحمد لله رب العالمين